الرسالة

(أعمال الرسل ٦: ٨–١٥؛ ٧: ١–٥؛ ٧: ٤٧–٦٠)

في تلك الأيام إذ كان استفانُسُ مملوءاً إيماناً وقوَّةً كان يصنعُ عجائبَ وآياتٍ عظيمةً في الشعب* فنهضَ قَومٌ منَ المجمعِ الملقَّبِ بمجمعِ الليبرتيين والقيروانيين والإسكندريين والذين من كيليكيةَ وآسيةَ يُباحثونَ استفانُس* فلم يستطيعوا أن يُقاوموا الحكمةَ والروحَ الذي كان ينطِقُ به* حينئذٍ دسُّوا رجالاً يقولونَ إنَّنا سمعناهُ ينطِقُ بكلماتِ تجديفٍ على موسى وعلى الله* وهيَّجوا الشعبَ والشيوخَ والكتبةَ معاً. فنهَضوا واختطَفوهُ وأتَوْا به إلى المحفِلِ* وأقاموا شهودَ زُورٍ يقولون إنَّ هذا الإنسانَ لا يفتُرُ عن أن ينطِقَ بكلماتِ تجديفٍ على هذا المكانِ المقدَّسِ والناموس* فإنَّنا سمعناهُ يقول إنَّ يسوعَ الناصريَّ هذا سينقُضُ هذا المكانَ ويبدِّلُ السُّنَنَ التي

القديس يوسف
خطيب العذراء

في أول أحد يقع بعد عيد ميلاد ربّنا يسوع المسيح بالجسد، تُعيِّد الكنيسة للبار يوسف خطيب الكلّية القداسة والدة الإله، وللنبي داود أبي السلالة، والرسول يعقوب أخي الربّ. أما هنا فسوف نتحدّث فقط عن القديس يوسف، محاولين الإضاءة على ما له من مكانة هامة في تقليدنا الأرثوذكسي، منذ نشأة الكنيسة وعلى مدى العصور، ولو أغفَلَه الإكرام الشعبي أحياناً.

من خارج النصوص الإنجيلية لا نعرف عن البار يوسف الخطيب إلاّ القليل الآتي إلينا من التقليد وما هو مُتناقَل شفهياً. أما في الإنجيل فنرى هذا القديس شخصية أساسية في حَدَث تجسُّد الكلمة ابن الله منذ حَبَل العذراء، إذ يُشير إليه الإنجيلي متى منذ بدء حديثه عن ولادة يسوع: «لـمَّا كانت مريم أمّه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا، وُجدت حُبلى من الروح القدس» (متى ١: ١٨). وفي الآية التالية يسمّيه الإنجيلي «بارًا» إذ لم يشأ أن يفضح خطيبته، وإن كان هذا حقّه بحسب الشريعة، لكي لا يُعرّضها لعقوبات الناموس، بل «أراد تخليتها سرّاً» على ما يقول الإنجيلي (١: ١٩). في هذه الآية نفهم لماذا سمّاه الإنجيلي بارّاً، وكم كان هذا الرجل صِدّيقاً. فبالرغم من صعوبة الموقف، فتاة تأتي إلى خطيبها الشيخ لتقول له بأنها حُبلى من الروح القدس، بما يفوق قدرة استيعاب المنطق البشري ولا حتى قدرة أي رجل على القبول، في مجتمع تحكمه الذكورية وتُسيّره نصوص الشريعة، نراه مهتماً أولاً بأن لا يفضحها. لذا، و«فيما هو مُتفكّر في هذه الأمور»، ولأن الله عالم لماذا اختار يوسف حاضناً وأباً أرضياً لابنه الوحيد، أتاه في الحلم ملاك الرب ليحوِّل قلقه سلاماً وتردّده ثباتاً (متى ١: ٢٠–٢٥).

العدد ٢٠١٥/٥٢
الأحد ٢٧ كانون الأول

تذكار يوسف الخطيب وداود الملك واستفانوس رئيس الشمامسة وأول الشهداء والبار ثاودورس المعترف

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الثامن

بعض آبائنا القديسين يقولون لأن برارة القديس يوسف غَلَبَت، إنّ الله كرَّمه بالبشارة كما كَرَّم العذراء قبله.

في أيقونة الميلاد بنَمَطيها المُقتَضَب والموَسَّع، القديس يوسف شخص أساسي من دونه لا تكتمل الأيقونة. ومعلوم أن الأيقونة في لاهوتنا تروي، بالصورة، محطات الخلاص الإلهي تماماً كما ترويها النصوص المُقدَّسة بالكلمة. ففي النمط المُقتضَب نرى القديس يوسف،

مع العذراء الكلّية القداسة، حول الطفل الإلهي في وضعية فيها، في الوقت عينه سجودٌ له وسهرٌ عليه. السجود لأنهما عارفان أن هذا الطفل المولود الآن هو الكلمة المولود من الآب قبل كل الدهور. أما السهر فللدلالة على اضطلاع كل منهما، يوسف كما العذراء مريم، بالمسؤولية الأُسَريّة الملقاة عليهما من الله تجاه ابنه الوحيد المتجسِّد. أما في النمط الموسَّع، أي الأيقونة التي تروي حَدَث الميلاد وكلّ الأحداث المُرتَبطة به كبشارة الرعاة وسجود المجوس ومذبحة بيت لحم، نرى القديس يوسف في الزاوية السفلى، إلى يمين موضع الطفل الإلهي، مُطرقاً وكأنّه يفكّر (بالإشارة إلى العبارة الإنجيلية «فيما هو متفكّر في هذه الأمور...»). هنا نراه أيضاً مواجِهاً المُجرِّب المُصوَّر بشكل رجل عجوز (نظراً إلى أنه عدو البشرية القديم) يكسو جسده ما يشبه فرو الحيوانات البرية (نظراً إلى بهيميَّته).

أما في التراث الآبائي، فيكاد لا يخلو نصّ عن الميلاد من ذكر القديس يوسف الخطيب كخادم لسرّ التجسد الإلهي. مثلاً، يقول القديس أفرام السرياني في نشيد له عن الميلاد إن يوسف الذي حضن، أبوياً، الإبن كطفل، كان في الوقت عينه خادماً إياه كإله. ذلك أنه كان على الدوام مذهولاً إزاء السرّ العظيم، متأملاً في قلبه كيف أُعطي له أن يكون لابن العليّ أباً وكيف اختلط عليه في البدء أمر الحَبَل البتولي، وكيف راودته، ولو للحظة، فكرة تخليَة الأم العذراء ولم يكن يعلَم أن في حشاها الكنز الأثمن، وأنه سيكون له هو، في يوم من الأيام، أن يحضن رب الأمجاد.

عن البارّ خطيب العذراء يقول أيضاً القديس ومعلّم المسكونة يرونيموس (٣٠ أيلول) إن الله في حكمته التي لا حد لها غالباً ما يستعمل أبسط الوسائل لإتمام مقاصده. فعند تجسد الإبن الوحيد ما كان ممكناً أن يكشف للعلن أمر حَبَل مريم البتولي، لئلا تسلّط الأضواء على الرب يسوع قبل الأوان، ودونما تهيئة كافية. لذا، أتت خطوبة يوسف لمريم لتحقق عدة أهداف في آن: حفظ المسيح من الأضواء حتى الساعة المحددة، وحفظ مريم والدة الإله من مؤامرات الشرير الواردة عبر مجتمع شرائعي لا يمكنه أن يقبل حبلاً بغير أب. وبالتالي كان لا بدّ من حضن أبوي طاهر للإبن الإلهي ولأمّه معاً. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الرؤية لدور الصدّيق يوسف ردّدها أكثر من واحد من الآباء، منذ القرون الأولى، مثل القديس اغناطيوس الإنطاكي (الرسالة إلى أهل أفسس) إلى باسيليوس الكبير وأبيفانيوس القبرصي والذهبي الفم وغيرهم.

عند أبينا البار رومانوس المرنّم نصٌّ ليتورجي بديع، تخاطب فيه الكلّية القداسة الملوك الثلاثة الذين أتَوا يسجدون للطفل المولود، قائلة عن خطيبها العفيف أن الله اختاره ليحميَها وطفلَها الإلهي لا من المَشكّكين وحسب بل من المتآمرين أيضاً. وأنّه سوف يخبر عما سمعه من الملاك، الذي شرَحَ ليوسف تدبير الله في الحبل البتولي، ومَن يكون هذا الطفل الآتي. في النص نفسه تُكرّر الكلية القداسة أن يوسف سوف يكون، معها، شاهداً للخليقة على أن الطفل المولود الآن هو الإله الذي من قبل الأزل، وعن كيف أنشدت ملائكة السماء مع الرعاة، وعن «النجمة التي مشت أمامكم وأنارت سبيلكم إليه».

معلوم أنه في مجتمع ذكوري الطابع شرائعي التنظيم كمجتمع إسرائيل القديم، كان بديهياً أن

سلَّمها إلينا موسى* فتفرَّسَ فيهِ جميعُ الجالسينَ في المحفِل فرأوا وجهَهُ كأنَّهُ وجهُ ملاكٍ* فقالَ رئيسُ الكهنةِ أتُرى هذه الأمورُ هكذا* فقال أيُّها الرجالُ الإخوةُ والآباءُ اسمعوا. إنَّ إلهَ المجد تراءى لأبينا إبرهيمَ وهو في ما بينَ النهرينِ من قبلِ أن سكَنَ في حاران* وقال لهُ اخرُجْ من أرضِكَ ومن عشيرتِكَ وهلمَّ إلى الأرضِ التي أُريكَ* حينئذٍ خرجَ من أرضِ الكلدانيينَ وسكنَ في حاران. ومن هناكَ نَقلَهُ بعد وفاةِ أبيهِ إلى هذه الأرضِ التي أنتم الآنَ ساكِنون فيها* ولم يُعطِهِ فيها ميراثاً ولا موطِئَ قَدَمٍ* ثمَّ إنَّ سُليمانَ بنى لهُ بيتاً* لكنَّ العليَّ لا يسكُنُ في هياكلَ مصنوعاتِ الأيادي كما يقولُ النبيُّ* السماءُ عرشٌ لي والأرضُ موطئُ قَدَميَّ. فأيَّ بيتٍ تَبنونَ لي يقولُ الربُّ أم أيُّ موضعٍ يكونُ لراحتي* أليست يدي هي صَنَعَتْ هذه الأشياءَ كُلَّها* يا قُساةَ الرِّقابِ وغيرَ المختونَين بالقلوبِ والآذان. إنَّكم تقاومونَ الروحَ القُدُسَ دائماً. كما كان آباؤكم كذلك أنتم* أيُّ الأنبياءِ لم يضطهِدْهُ آباؤكم. وقد قتلوا الذين

سبقوا فأنبأوا بمجيءِ الصِّدِّيقِ الذي صِرتُم أنتم الآن مُسَلِّميهِ وقاتليهِ* أنتم الذينَ أخذتُمُ الناموسَ بترتيبِ الملائكةِ ولم تحفظوهُ* فلمَّا سمِعوا ذلك تمزَّقوا في قلوبهم وصَرفوا عليه بأسنانِهم* وهو إذ كان ممتلِئاً من الروح القدس تفرَّسَ في السماءِ فرأى مجدَ اللهِ ويسوعَ قائماً عن يمينِ الله. فقالَ هاءنذا أرى السمواتِ مفتوحةً وابنَ البشرِ قائماً عن يمين اللهِ* فصرَخوا بصوتٍ عظيمٍ وسدُّوا آذانَهم وهجموا عليهِ بعزمٍ واحدٍ* وأخرجوهُ خارِجَ المدينةِ وجعَلوا يرجُمونَهُ. ووضعَ الشهودُ ثيابَهم لدى قدَمَي شابٍّ اسمهُ شاول* وجعلوا يرجُمونَ استِفانُسَ وهو يدعو ويقولُ أيُّها الربُّ يسوعُ المسيح إقبل روحي* ثمَّ جثا على رُكبَتَيْهِ وصرَخَ بِصوتٍ عظيمٍ يا ربُّ لا تُقِمْ عليهم هذه الخطيئة ولمَّا قال هذا رقَدَ.

الإنجيل

(متى ٢: ١٣–٢٣)

لمَّا انصرفَ المجوسُ إذا بملاكِ الربِّ ظهرَ ليوسفَ في الحُلمِ قائلاً قُمْ فَخُذِ الصبيَّ وأمَّهُ واهرب إلى مصرَ وكُن هناكَ حتى أقول لك* فإنَّ هيرودسَ مُزمِعٌ أن يطلبَ تتمحور العائلة، نواة المجتمع، حول الأب. فعلى سبيل المثال، وضع الشرع الإلهي على الرجل، من حيث أنّه أب وزوج، واجب حماية حقوق أسرته أمام القضاة عند الضرورة (تث ٢٢: ١٣–١٩). ومعلوم أيضاً أنه في ذاك المجتمع كان أيتام الأب، واللواتي لا زوج لهن، مهمّشين لا حقوق لهم. هكذا يأتي يوسف مكمِّلاً لمريم، ولطفلها الإلهي، الإطار الأُسري السليم إزاء شرع الله من جهة (راجع لوقا ٢: ٢١–٢٤)، وإزاء مستلزمات الحياة من جهة أخرى. وبالنظر إلى فضيلة هذا الصدّيق، بات يوسف لمريم الشاهد الأصدق على طهرها والحافظ الأمثل لابن الله المتجسّد. وعندما تآمر هيرودس الشرير ليقتل الطفل الإلهي، أرسل الله ملاكه إلى يوسف ليهرب بالصبي وأمه إلى مصر، ثم ليرجع بالصبي وأمه «إلى أرض إسرائيل، لأنّه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي» (لو ٢: ١٣–٢٣).

سُئِلَ أحد الآباء الروحيين عما إذا عبارة «فيما هو مُتفكِّر في هذه الأمور» تعني تَخَبُّط يوسف بين مشاعر الرحمة والغفران من جهة والكبرياء الذكورية من جهة أخرى، فأجاب لا. ما كان هذا العفيف مُتفكِّراً فيه هو أن لا يأخذ قراراً ولا يفعل فعلاً إلا بما يُرضي الله. فهو كان، كما كانت العذراء مريم، لا شهوة فيه إلا لما لله. لعلّه لأجل هذا اختاره الله للبتول القديسة ولابنها الإله حاضناً وأباً، ولتدبيره الخلاصي حارساً وخادماً.

عظة القديس استفانوس

تعيَّد كنيستنا المقدسة في ٢٧ كانون الأول للقديس استفانوس أول الشهداء ورئيس الشمامسة الذي نقرأ عنه في الإصحاحين السادس والسابع من أعمال الرسل. كان واحداً من رجال سبعة «مشهود لهم ومملوئين من الروح القدس والحكمة» (أع٦: ٣) انتخبهم الرسل ليساعدوهم في خدمة الموائد والاهتمام بحاجات الفقراء والأرامل. كان استفانوس «مملوءًا إيماناً وقوةً، كان يصنع عجائب وآياتٍ عظيمةً في الشعب» (أع٦: ٨) ولم يكن أحدٌ يستطيع مقاومة حكمته في الكلام. وبحسب بعض المصادر القديمة فقد استشهد القديس استفانوس في أواخر السنة نفسها التي صُلِّب فيها الرّب يسوع. وثمَّة من يذكر أن ذلك حدث في السابع والعشرين من كانون الأول من تلك السنة. ويظهر أنَّه دُفن في مكان يبعد عشرين ميلاً عن أورشليم يدعى كفراغمالا. وقد حُفر على قبره اسم خليال الذي يعني إكليل أيّ إستفانوس باليونانية.

في هذين الإصحاحين (أع ٦ و٧) نقرأ خطاباً للقديس قُبيل استشهاده بعد أن اتهمه المجمع اليهودي بالتجديف: «إنَّنا سمعناه يتكلَّم بكلام تجديفٍ على موسى وعلى الله» (أع٦: ١١). فقد اتُهم زوراً أن: «هذا الرجل لا يفتر عن أن يتكلَّم كلاماً تجديفاً ضد هذا الموضع المقدس والناموس، لأنَّنا سمعناه يقول: إن يسوع الناصريّ هذا سيَنقُض هذا الموضع، ويغيِّر العوائد التي سلَّمنا إياها موسى» (أع٦: ١٣–١٤).

يعرض الشهيد استفانوس في خطبته لأهم محطات تاريخ شعب الله من خلال عرضه لقصة ابراهيم ويوسف وموسى (أع٧: ١–٤٠)، مستخلصاً من هذا التاريخ أهم العبر والدروس والمعاني. لا يكتفي قديسنا بالأمور الإيجابيَّة فقط إنَّما يهاجم شعب اسرائيل الذي ابتعد عن الله بسبب أفعاله وممارساته البعيدة عن وصايا الله. يتهمهم

بمقاومة الروح القدس: «يا قساة الرقاب والقلوب ويا صمّ الآذان! أنتم مثل آبائكم، ما زلتم تقاومون الروح القدس» (أع٧: ٥١)، ويتّهمهم أيضا بقتل الأنبياء والرب يسوع: «أما قتلوا الذين أنبأوا بمجيء البار الذي أسلمتموه وقتلتموه؟» (أع٧: ٥٢). ثم ينهي كلامه باتّهامهم «أنتم تسلّمتم شريعة الله من أيدي الملائكة وما عملتم بها» (٧: ٥٣).

إن الآية المحوريَّة في خطاب استفانوس هي الآية ٧ التي تشير إلى ابراهيم أب الآباء، وأن الله سيحرِّر الشعب من عبوديته «ويعبدوني هنا في هذا المكان» (أع٧:٧). وردت هذه الآية في سفر التكوين (تك١٥: ١٤) دون الحديث عن العبادة. يشير بعض المفسرين أن القديس زاد على الآية موضوع عبادة الرب ليفسَّر للمجمع اليهودي السبب الذي من أجله صار الشعب حراً. فالله عندما أرسل ابراهيم إلى أرض أخرى، كان يريد أن يحرّر الشعب من الضياع وعبوديَّة الأوثان فيعبدونه. أمَّا الحديث عن يوسف الذي باعه إخوته إلى مصر فهو للدلالة على أن الله الذي خلَّص يوسف من مصائبه، خلّص به الشعب كلَّه. فكما كان الشر الذي بادر به إخوة يوسف أخاهم سبباً لخلاصهم، هكذا كان موت المسيح على الصليب سبباً لخلاص البشر. بعدها يتحدّث استفانوس عن موسى: «وظنَّ موسى أن إخوانه سيفهمون أن الله يخلّصهم على يده، فما فهموا» (أع٧: ٢٥) وفي هذا إشارة إلى أن اليهود لم يفهموا أن الرب يسوع المسيح قد أتى لخلاصهم. وفي مكان آخر يوضح قديسنا كيف أن الشعب الذي رذل موسى الذي تنبأ بأن الله «سيقيم لكم من بين شعبكم نبياً مثلي» (أع٧: ٣٧)، هذا الشعب عاد إلى عبادة العجل وقدّم له الذبائح، هكذا أيضاً رفض الشعب نفسه الرب يسوع وقتله. ثمَّ يعارض الشهيد استفانوس المفهوم اليهودي للهيكل معتبراً أن الله «لا يسكن بيوتاً صنعتها الأيدي»، فالهيكل معرَّض لأن يكون مثل المعابد الوثنية.

يرينا لوقا الإنجيلي أن استشهاد القديس استفانوس هو صورة عن موت المسيح، من مثوله أمام المجمع اليهودي واتهامه بالتجديف وإقامة شهود الزور، إلى مسامحته لجلاديه «يا رب، لا تحسب عليهم هذه الخطيئة»، بعد أن دعا: «أيها الرب يسوع، تقبَّل روحي» (أع٧: ٥٩–٦٠). هذه الأقوال تردّنا إلى قول المسيح المصلوب حين غفر لصالبيه (لو ٢٣: ٣٤)،

هذا القديس الذي تصفه الكنيسة في صلواتها بأب الشهداء وطريق القدّيسين وزعيم الاستشهاد الذي قدّس بجهاداته أقطار العالم، يقدِّم لنا نموذج التلميذ الذي يشهد ليسوع المسيح بحياته حتى الاستشهاد. فبشفاعاته اللهم ارحمنا وخلّصنا، آمين.

ذكرى ختانة الرب

بمناسبة ذكرى ختانة الرب يسوع المسيح بالجسد وتذكار أبينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير ورأس السنة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة السحر عند التاسعة والقداس الإلهي عند العاشرة من صباح الجمعة ١ كانون الثاني ٢٠١٦. يستقبل سيادته المهنئين بعد ظهر الجمعة ١ كانون الثاني من الساعة ٥ ب.ظ. حتى الساعة ٨ مساءً.

الصبيَّ ليهلِكَهُ* فقامَ وأخذ الصبيَّ وأمَّهُ ليلاً وانصرفَ إلى مصرَ* وكان هناك إلى وفاةِ هيرودس ليتمَّ المقولُ من الربِّ بالنبيّ القائل: «من مصرَ دَعَوتُ ابني»* حينئذٍ لمَّا رأى هيرودسُ أنَّ المجوسَ سخروا بهِ غضب جدًّا وأرسل فقتل كلَّ صبيانِ بيتَ لحمَ وجميعِ تخومها من ابنِ سنتين فما دونَ على حسب الزمان الذي تحقَّقهُ من المجوس* حينئذٍ تمَّ ما قالهُ إرمياءُ النبي القائل: «صوتٌ سُمعَ في الرامةِ نوحٌ وبكاءٌ وعويلٌ كثيرٌ. راحيل تبكي على أولادها وقد أبَتْ أن تتعزّى لأنَّهم ليسوا بموجودين»* فلمَّا ماتَ هيرودسُ إذا بملاكِ الربِّ ظهرَ ليوسفَ في الحُلمِ في مصرَ قائلًا: قُمْ فخُذِ الصبيَّ وأمَّهُ واذهبْ إلى أرضِ إسرائيلَ فقد ماتَ طالبو نفسِ الصبيّ* فقام وأخذ الصبيَّ وأمَّهُ وجاءَ إلى أرضِ إسرائيلَ* ولمَّا سمع أنَّ أرْشيلاوسَ قد مَلَكَ على اليهوديةِ مكانَ هيرودسَ أبيهِ خاف أن يذهبَ إلى هناك وأُوحيَ إليهِ في الحلمِ فانصرف إلى نواحي الجليلِ* وأتى وسكنَ في مدينةٍ تُدعى ناصرة ليتمَّ المقولُ بالأنبياء إنَّهُ يُدعى ناصريًّا.